القصص

في الادب العربي

للدكتور احمد ضيف

الاسلوب القصصي من أشهر أساليب الكتابة الادبية وأوسعها خيالاً وأفسحها مجالاً لوصف الحياة الانسانية والنفوس البشرية واسرار الاجتماع ، وبث شعور الإنسان من سعادة وشقاء وحب وبغض ، ورسم عقائد الانسان من حقائق وأساطير ، وذكر حوادث التاريخ القريبة والبعيدة . ثم هو زيادة على ذلك معرض لفنون الكتّاب ومجال واسع لظهور نبوغهم ، وعبقرياتهم الادبية والفنية وأساليب التفكير لديهم . لهذا كانت القصص من أعظم الانواع الادبية في آداب الأمم ، ونتاج قرائحهم قديماً وحديثاً، بل أبقى تلك الانواع جميعاً وأشدها جذباً للنفوس وأعمها فائدة وتمتعاً في تغذية العقول ، ونشر الفنون الكتابية

ولقد نجد كثيراً من القصص في الادب العربي ، فكتب الادب والتاريخ حافلة بذكر ايام العرب وحروبهم والتحدث عن ملوكهم ، وكبار رجالهم ، وشعرائهم وعشاقهم ، وأخبار الجن وسيرهم . ولكن ذلك ذكر في تلك الكتب على أنهُ أحاديث ومسامرات وروايات يذكرها الكاتب او المؤلف على انها قطعة تاريخية لا قصة أدبية فنية — لانها ليست مكتوبة بقلم كاتب واحد ولا من تأليف كاتب معروف امتازت بأسلوبه وعرفت بصبغته الشخصية وشعوره الخاص، بل رواها الرواة وغيروا وبدّلوا فيها كما يروي المؤرخ حادثة ثم يرويها مؤرخ آخر بطريقة اخرى،فلا تحسب هذه الروايات من الكتابة القصصية الادبية المعروفة الآن التي تمتاز كما قلنا بأسلوب الكاتب الفني وطريقته في التفكير وصبغته العقلية الخاصة بهِ ، ونظم الكلام المعروف في كتابة القصص المحتوي على ذكر اشخاص متصفين بأخلاق خاصة ، وصفات خاصة يتحدثون ويتجادلون فتظهر في أثناء أحاديثهم ومجادلاتهم خفايا النفوس البشرية ، وما تنطوي عليهِ من ميول واهواء وعقائد . ان حوادث التاريخ لا تتغير وطبيعة الانسان واحدة : فالحب والبغض،والطمع والقناعة ، والاحسان والاساءة، والتقوى والفسوق ، كلها حالات ثابتة في النفوس وفي طبيعة الانسان لا تختلف في اصولها ، ولكن الذي يتغير ويختلف هو إدراك الشخص لها وفهمها فهماً صحيحاً أو خطأً ، وتصوير الكاتب لها على حسب ما يرى ويفهم ، وعلى حسب ما يلبسها من شخصيته وأسلوبهِ ، فهذه الشخصية

هي التي تظهر في الكتابة القصصية وتميزها من غيرها ، وهي التي تقلب التاريخ الى أسطورة او الى بحث نفسي او اجتماعي ، وقوة الكاتب او براعته هي التي تلبس الحوادث والحكايات لباساً قد يجعلها خالدة باقية ببقاء الايام ، فعلى هذا لا تحسب الاحاديث التي في الكتب الادبية العربية كالأخبار الخاصة والعامة ، وذكر الملوك والحروب ، وأحاديث المسامرات وغيرها ، من القصص الفنية

وقد جاء الأسلوب القصصي في الاسلوب الفني الى لغة العرب مما نقل اليها من الفارسية أو الهندية أو غيرها ككتاب «كليلة ودمنة» و «الف ليلة وليلة» وغيرها مما ذكره ابن النديم في باب الاسمار والسير ، كتبت على نمط هذه القصص المترجمة ، وقصص اخرى وحاكى فيها مؤلفوها أساليب التفكير الفارسية أو الهندية — عن ألسنة الحيوان والبهائم — مما أخذه الكتّاب من تاريخ الفرس أو الهنود

قال ابن النديم في كلامه على الكتب التي صنفت في الاسمار والخرافات :

ابتدأ ابو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري صاحب كتاب الوزراء بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم . . . واحضر السامرين فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون . . . واختار من الكتب المصنفة في الاسمار والخرافات ما يطيب له — وكان فاضلاً — فاجتمع له من ذلك أربعمائة ليلة وثمانون ليلة وكل ليلة سمر تام . . . وكان قبل محمد يعمل الاسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم جماعة منهم : عبد الله بن المقفع وسهل بن هرون ، وعلي ابن داود . فهؤلاء جماعة من الكتّاب كانوا يؤلفون في القصص ويحاكون الفرس وغيرهم في الأساليب القصصية

انتشار القصص العامية

اما سبب انتشار القصص العامية ولاسيما الاعجمية منها فقد اندسّ بين العرب أيام الدولة العباسية جماعة من الاعاجم وكان من بينهم من يحمل الاخبار الخرافية والأخيلة الغريبة التي ورثوها عن آبائهم واجدادهم الفرس والهنود اصحاب الاخيلة العتيدة في الاساطير وينبوع كل هذه القصص الخرافية . وكان من بينهم جماعة من التجار الذين يترددون على الهند وفارس وبلاد العرب وينشرون هذه الاخبار في المجالس والمجامع بين الخاصة والعامة . فذاع أمر هذه القصص بين عامة الناس حتى امتلأت باللهجة العامية وعني بالكتابة فيها بعض الادباء واضافوا اليها كثيراً من صور حياتهم الاجتماعية والسياسية وادخلوا فيها شيئاً من الاشعار المعروفة والامثال السائرة والعبارات الصحيحة

وأدخل جماعة من الكتّاب في هذه القصص شيئاً من تاريخ العرب وكبار رجالهم وفرسانهم وحروبهم واخبارهم وسيرهم ونقلوا اليها بعض ما في كتب الادب المعروفة من شعر ونثر وامثال وحكم وجاروا العامة في ميولهم واساليب التفكير لديهم فظهرت فيها حكايات هي خليط من الفارسية

والهندية والحياة الاسلامية العربية ولهجات الخاصة والعامة والحوادث المختلفة للخلفاء والامراء والعلماء والجهلاء والرجال والنساء والكبار والصغار . وقد جاروا العامة في اساليبهم وميول التفكير لديهم كما يجد القارىء ذلك في قصة عنترة وبكر وتغلب وسيف بن ذي يزن وغيرها من القصص العامية المشهورة . وكل هذه القصص أو جلها كتب في مصر بأقلام كتّاب من المصريين على ما يظهر من لهجتها العامية المصرية

ومن اشهر القصص العامية قصة عنترة وهي اقرب الى وصف الحياة البدوية منها الى غيرها وقد احتوت على كثير من اخبار العرب واشعارهم واوصاف حروبهم وعاداتهم واخلاقهم من كرم وشهامة وشجاعة وميل الى الانتقام ، كما احتوت على جهم لشعر وفنونه وجملة احوالهم الاجتماعية والتاريخية قبل الاسلام

ومما يجدر التنبيه عليه ان هذه القصة وامثالها كتبت في مصر بأقلام كتّاب مصريين ويروون في ذلك : « انهُ نشأ في مصر من افضل الرواة رجل يقال له الشيخ يوسف بن اسماعيل وكان يتصل بباب العزيز بالقاهرة فاتفق ان حدثت ريبة في دار العزيز ، ولهج الناس بها في المنازل والاسواق فساء العزيز ذلك ، واشار على الشيخ يوسف بن اسماعيل المتقدم ان يطرق ما ساءه ان يشغلهم عن هذا الحديث ، وكان واسع الرواية في اخبار العرب ، كثير النوادر والاحاديث ، فأخذ يكتب قصة عنترة ويوزعها على الناس ، فاعجبوا بها ، واشتغلوا بها عن سواها ، ومن تلطفه في الحيلة انهُ قسمها الى اثنين وسبعين كتاباً ، والتزم في آخر كل كتاب منها ان يقطع الكلام عند معظم الامر الذي يشتاق القارىء والسامع الى الوقوف على تمامه ، فلا يفتر عن طلب الكتاب الذي يليه ، فاذا وقف عليه انتهى به الى مثل ما انتهى به في الاول وهكذا .. الى نهاية القصة .. وقد اثبت في هذا الكتاب بعض ما ورد في اشعار العرب المذكورين فيها . واضاف الى تلك الاشعار اشعاراً اخرى يعتقد ان تكون صادرة عنهم ، كما اضاف اليها قصصاً واحاديث وحكايات مخترعة قصد بها التسلية والتمثيل »

فعلى هذه الرواية التي وجدت في مقدمة ديوان عنترة تكون هذه القصة كتبت في مصر كما كتب غيرها من القصص الأخرى التي تظهر فيها المسحة المصرية والصبغة العقلية لأهل مصر من فكاهات وغيرها

نوع القصص العربية

ولقد ظهر في القرن الثالث والرابع وما بعدها أحاديث او حكايات تدخل في باب القصص من جهة انها مسقة مكتوبة كتابة بليغة ، ولكن كثيراً منها مبني على سرد ووصف شيء رآه

الكاتب ، وسطره تسطيراً مثل ما يحكى عن اهل بغداد ومجالس الرشيد والبرامكة وجانب عظيم من هذه القصص منقول عن اللغة الفارسية وغيرها او محاكاة لها او مؤلف تأليفاً هو اقرب الى التاريخ منه الى القصص . وبعضها كتب بلغة ملحونة فاسدة لا تحسب من الادب الصحيح مثل القصص العربية المعروفة التي كتب اكثرها بلهجة عامية مصرية . وهناك نوع من القصص التي اخذ الكتاب موضوعاتها من التاريخ العام او الخاص ومن بعض البلدان التي عاشوا فيها ، او من قصص القرآن كقصص فرعون وموسى وعيسى بن مريم ، واهل الكهف وغيرهم ، او انتزعوها من الف ليلة وليلة ، او اخذوها من تاريخ العرب والاجتماع في بغداد مثل حكاية ابي القاسم احمد البغدادي وحكاية الحداد ، وما جرى له مع هرون الرشيد ، وقصة انيس الجليس وما جرى لها مع علي نور الدين ، وهي مأخوذة من الف ليلة وليلة ، ومثل حديث علاء الدين والقنديل المسحور وكالحكايات المنسوبة الى ابي الحسن احمد بن عبد الله بن محمد البكري المتوفى في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري كغزوة الاحزاب وما جرى للامام علي الفارس الوثاب ، وغزوة الامام علي بن ابي طالب مع اللعين هضام ابن المجلف ، وكفتوح العين المعروفة بقصة الغول وغير ذلك من القصص الكثيرة التي كتبت في ازمان مختلفة

المقامات والقصص

وهناك قصص أخرى أدبية مثل رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ومثل التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي ومثل قصة حي بن يقظان الفلسفية ، وهذه القصص اقرب الى الكتابة العلمية او الفنية الخاصة بالنقد الأدبي او الفلسفي

ومن اسلوب القصص مقامات الهمذاني والحريري وامثالها وهي جارية على غير اسلوب تلك القصص العامية الحافلة بالاخطاء واللحن وليست شبيهة بها من حيث موضوعاتها لان تلك الموضوعات اما فارسية او هندية او عربية مقتبسة من تاريخ الفرسان والابطال ، قد عبث بها الخيال ولعبت بها اهواء العامة

والمقامات ليست على هذا الطراز لأنها كتبت بعبارة عربية صحيحة واخذت حوادثها من مشاهدات الكتاب واحوال الاجتماع والعصور التي كانوا يعيشون فيها

وقد اشتملت على بعض المسائل الاجتماعية وعلى وصف بعض النفوس وكان الغرض من كتابتها اظهار البراعة في اساليب الكتابة المسجعة وانواع الشعر الصناعي وتنميق الاسلوب